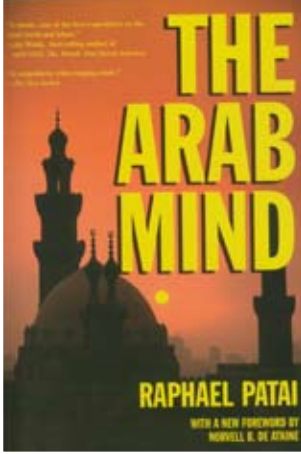


العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس



الفصل الخامس عشر

رسالة الركود العربي

1. رسالة التاريخ

لم يكن معظم العرب يعرفون غير القليل عن تاريخهم حتى جاءت الحرب العالمية الأولى. وذلك دون ذكر بعض التقاليد الشعبية المبهمة التي شكلت جزءاً من الفولكلور العربي وربما كانت لها علاقة ما بحقائق تاريخية ثابتة. وكان إهمال عنصر الزمن صفة مميزة في هذه التقاليد مما جعل الناس الذين لهم اطلاع جيد على البطولات الأسطورية لهارون الرشيد وصلاح الدين لا يعلمون متى عاشت هاتين الشخصيتين. أو كم توالى من أجيال منذ ذلك الحين.

وطالما كانت من الميزات التقليدية لنفسية العربي أن ينفس غضبه بمن يحمل له الأخبار السيئة؛ وهنالك العديد من الوقائع التاريخية التي نجد فيها الخليفة أو الوزير يأمر بقطع رأس رسول بريء لا لذنب اقترفه غير نقله لنبا الهزيمة في إحدى المعارك أو أي حدث مؤلم آخر. أما هؤلاء الذين تحملوا عبء نقل المعلومات المكروهة عن الركود العربي منذ نهاية العصور الوسطى فكانوا مؤرخين غربيين تخصصوا في القرن الثامن عشر بالدراسات العربية والشرق أوسطية؛ وكان من حسن حظهم أنهم لم يتواجدوا شخصياً عندما وصلت أنباؤهم المؤلمة عن الركود والتخلف الحضاري إلى مسامع المثقفين العرب؛ حيث كانت الاستجابة تتطابق تماماً مع ما قد يتوقعه المرء: اتهام هؤلاء المؤرخين الذين نذروا أنفسهم لدراسة التاريخ العربي بأنهم معادون للعروبة. وكان أي تحليل ناقد لتاريخ العرب يفهم على أنه محاولة لتدمير الأمة العربية. وكان ينبغي أن تمر عدة عقود قبل أن تفعل الرسالة فعلها بغض النظر عن إطلاقها والضربة التي وجهتها إلى كبرياء العرب.

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

فتقبل عدد أكبر من المثقفين العرب الحقيقة التاريخية للأمد الطويل الذي قضاه العرب في ركودهم، ومن بعدها فهموا العبرة التاريخية من وراء ذلك.

إن قراءة سريعة للتاريخ العربي الرسمي ترسم مشهدا يبين أبعاد مشكلة الركود العربي. فنجد أن فيليب حتي، هذا المؤرخ العربي الماهر الذي لا يجارى في مضمار اختصاصه الذي أنفق فيه سنين حياته، لا يخصص إلا أقل من (7%) من كتابه الضخم (تاريخ العرب من العصور القديمة حتى الحاضر) لمناقشة أحداث ما بعد عام 1517. إن هذه المعالجة المختصرة لفترة طويلة معاصرة كهذه لا يمكن أن نجد لها غير سبب واحد: وهو أن الفترة الممتدة ما بين عام 1517 وبين حصول معظم الدول العربية على استقلالها بنهاية الحرب العالمية الثانية، لم يشهد العالم العربي خلالها أحداثا تاريخية ذات أهمية تؤهلها لتكون موضوعا للمناقشة بتفصيل أكبر.

ويصل المرء إلى الاستنتاج نفسه بدراسة الملحق الخاص لعدد أكتوبر 1956 من مجلة (اتلانتيك مونثلي Atlantic Monthly) والذي حمل عنوان (نظرة إلى العالم العربي)، واحتوى مجموعة ممتازة من الدراسة بأقلام عدد من أمهر المختصين بالشؤون العربية (من بينهم البرت حوراني، هاميلتون غيب، طه حسين، جمال محمد أحمد، إسحاق حسين)، وكان الملحق من إعداد ويليام بولك (William Polk) الذي يعد من أبرز هؤلاء المختصين. وحمل الملحق خاتمة ترسم خطأ زمنيا للعالم العربي مقسما إلى 54 مادة: 27 منها للفترة (500-1258)، 26 للفترة (1789-1956)، ومادة واحدة تحمل عنوان (القرن السادس عشر- 1918: العرب يشكلون جزءا من الامبراطورية التركية المتأسسة في القرن الرابع عشر) وذلك لجسر فجوة 540 عاما (الفترة 1258-1789)؛ وهذا الحال يذكرنا بمقولة الفيلسوف الألماني شبنينغلر (Oswald Spengler) حول انعدام الأهمية التاريخية «للفلاحين بتفاصيل حياتهم البهيمية» التي لا تحفل بأي حدث جدير بالملاحظة والتدوين في الخط الزمني. حتى أن حتي نفسه يصرح بأنه حتى استيلاء نابليون على مصر (1798-1801):

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

كان سكان العالم العربي في الأعم يعيشون حياة انطوائية تقليدية متعارفا عليها. ولم يكونوا ينجزون أي تقدم. كما كانوا بعيدين عن العلم بالتقدم الذي يحصل في الخارج. ولم يكن لديهم اهتمام بالتغيير. ولكن هذا الاتصال المفاجئ بالغرب كان بمثابة أول تنبيه ساعد على إيقاظهم من سباتهم الذي امتد من العصور الوسطى. كما قدح الشرارة الفكرية التي ألهمت ركنا من أركان العالم الإسلامي.¹

2. آراء ناقدة

ثمة دارس عربي آخر للحالة العربية. وهو ادوار عطية. كان أكثر تصريحاً في تشخيصه للوضع الفكري العربي قبل وقوع اختراق التأثيرات الغربية. فهو يرى أنه لغاية عام 1798 حينما وضع نابليون قدمه على أرض مصر:

كان العرب لا يزالون يعيشون في العصور الوسطى في حياة يسودها التصلب الاجتماعي والفكري. حيث فقدوا بالتدرج القدرة على التفكير للدخول إلى حقول جديدة من التحديات والاكتشافات.²

و«بدا كما لو أن العقل المسلم أصابته حالة من السكون». بحسب تعبير حتي، وبقي الفكر العربي مقيدا لقرون «بسلاسل لم تتزعزع إلا في عصرنا هذا».³ إن أمثال هذه التقييمات يصادفها المرء مرة أخرى في كتابات المؤرخين العرب. حتى أن بعض مروجي البروباغندا، فايز الصايغ. يتحدث عن «الركود الروحي» للعرب. ويصف ما حدث لهم خلال القرون الأربعة الماضية بطريقة تغلب عليها المازوكية: حيث يقول:

(1) فيليب حتي: تاريخ العرب: ص745.

(2) ادوار عطية: العرب: ص73.

(3) فيليب حتي: العرب... تاريخ موجز: ص128-129. وفي الصفحات (212-213) يعزو حتي ركود العرب إلى سلطة الأتراك المتعسفة وضرائبهم المرتفعة.

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

إن الركود الروحي الذي ساد المشهد العربي وشل الروح العربية منذ نهاية العصر العربي الكلاسيكي. ووصل إلى ذروته في ظل الحكم العثماني الذي دام 4 قرون. اهتز في البدء بالاضطرابات التي حدثت في القرن التاسع عشر والتي عرفت في ما بعد بالنهضة العربية.

ولعدة قرون، «انحدر العرب إلى حافة التاريخ، وعاشوا وتحركوا في بصيص من الوجود واللاوجود». ولم يتغير هذا الوضع إلا في عصرنا «وللمرة الأولى منذ ظهور الإسلام» انهمك العرب في «بحث عن الوجود... عن التاريخ... عن الكرامة». وتعتبر هذه النهضة عن نفسها بعدة أمور من بينها البحث عن «أنماط جديدة لتنظيم يحل محل النظام شبه الإقطاعي المتداعي والبنى القروية والعائلية الآيلة إلى التفكك». ويرى صايغ أن «التقاليد الحالية» في الحياة العربية ما هي إلا «تراث قرون من الحكم أو اللاحكم الأجنبي»: أما في ما يتعلق بالمبادئ والمؤسسات الديمقراطية الغربية الجديدة، فيرى صايغ أن العرب يتبنون حالياً منها الشكل الخارجي فقط». وبالرغم من أن العرب «يسعون إلى إحياء وإعلاء العناصر التقليدية القديمة المتناغمة مع النموذج الديمقراطي للحياة» فإنه «ينظر إليها باعتبارها بضاعة مستوردة، إن لم تكن مفروضة... ويراها فاشلة شأنها شأن أي رداء ليس بالمقاس المناسب، فلا أهمية لشكله مهما حسن». وفي ما يخص الأديان التقليدية العربية (الإسلام، والمسيحية عند الأقلية)، يرى صايغ بأنها:

تقلصت إلى كلمات فارغة مكررة، وانحدر الانتماء الديني إلى تجمعات بدائية تنتج التعصب الأعمى لا الالتفاف التنويري، وتحفيز صلة البحث عن المصلحة الذاتية لا الولاء التضحي، وتخدم أهدافاً سياسية محددة لتخريب الوحدة الوطنية عوضاً عن الإعلاء من شأن التجربة الروحية الذاتية الخلاقة المليئة بالمرح والمحبة¹.

(1) فايز صايغ: فهم العقل العربي: ص 27-29.

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

في عام 1953، العام ذاته الذي ظهر فيه منشور فايز صايغ السابق الذكر، ألفت نجلاء عز الدين كتاباً بعنوان (العالم العربي: الماضي، والحاضر، والمستقبل). وناقشت فيه القضية السابقة ذاتها. فرأت بأن العصر الذهبي (ق7-ق13) «تلتها فترة طويلة من الركود لم يقتصر فيها العرب على الانتظار وإنما فقدوا التواصل مع القيم الخلافة والتحريرية في تقاليدهم الخاصة بهم...» ومن بين العوامل التي أدت إلى هذا الركود تشير الكاتبة إلى الغزو المغولي في منتصف القرن الثالث عشر؛ والطاعون الذي انتشر مرتين في العالم الإسلامي خلال القرن الرابع عشر؛ والموجة الثانية من التوسع المغولي في نهاية القرن الرابع عشر؛ ثم تتابع قائلة:

لكن الأكثر تدميراً من المحن القادمة من الخارج كان جفاف الروح الخلافة المغامرة ضمن المجتمع العربي نفسه. إن الفضول الفكري المتحمس الذي ميز الفترة السابقة، والبحث الدؤوب المتوقد عن المعرفة، ومتاعه المغامرة كانت كلها قد دفنت تحت غلاف قاس من الآراء المتغطرسية والأصولية. لقد أقصي الفكر الحر، وحلت محله الأفكار التقليدية¹.

ويعد الولع بالماضي من مظاهر الاتجاه التقليدي العربي. ويوضح الكاتبان نبه أمين فارس ومحمد توفيق حسين ذلك بالقول:

وفق بعض الاعتبارات يميل شغف العرب بالأيام الخالية إلى أن يكون مرضاً مزمناً. وهو ينشأ على نحو طبيعي من البؤس العام الذي يعيشه غالبية الناس والأوضاع الاقتصادية والسياسية المأساوية التي سادت منذ سقوط الإمبراطورية العباسية والدول العربية في إسبانيا وشمال أفريقيا. إنهم يعيشون في ماضٍ رائع للهروب من حاضرٍ بئيس.

ثم يمضي الباحثان إلى وصف النفسية المشتركة التي تميز العرب قائلين:

(1) نجلاء عز الدين: العالم العربي... الماضي والحاضر والمستقبل: ص57-58.

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

حتى نهاية القرن الثامن عشر، كان العالم العربي في حال أقرب إلى الركود والانعزال والرضى بظروفه الراهنة والقبول بما قدر له والجهل التام بالأحداث المستجدة حوله. ثم جاء الغرب فاتحاً إلى العالم العربي، وأحضر معه ثقافته وحضارته وعلومه وبعثاته التبشيرية وقيمه الأخلاقية ومفاهيمه وبضائعه التجارية وسيطرته السياسية والاقتصادية والعسكرية.

ويلاحظ الكاتبان أن «المجاعة الثقافية التي دمرت الحياة العربية ليست، في الواقع، أمراً طارئاً، وليست كذلك نتيجة لما اقترفته يد الحكم الاستعماري وجشع الإقطاع والاضطهاد المحلي فحسب» وإنما «ترجع جذورها إلى بعيداً في أعماق تاريخ الشعب العربي». ويشير الكاتبان إلى المنزلة المتدنية التي وضع فيها المجتمع العربي نساءه، وعدا ذلك من العوامل المهمة التي ساهمت في تشكيل وضعه الحالي المؤسف. ويضيف الكاتبان: «فلا عجب من بقاء العالم العربي متخلفاً مقيداً بالتقاليد يمشي بخطوات عرجاء للحاق بركب التقدم البشري، وذلك عندما تكون منزلة النساء لديه بهذا التدني».

ويذهب بعض الكتاب العرب أبعد من ذلك، فيقرون بحقيقة انحطاط العرب وركودهم، ويفسرون بذلك تمكن أمم الغرب من إركاع العرب؛ ومن هنا يفترض الكاتب الإسلامي الجزائري مالك بن نبي في كتابه رسالة الإسلام أن سبب تعرض العرب للاحتلال الفرنسي يعود في جزء كبير منه إلى أن الثقافة العربية لم تعد خلافة وفقدت القدرة على الدفاع عن نفسها.

ثم جاء محجوب بن ميلاد، وهو زميل لمالك بن نبي من تونس، ليطور فكرة الركود العربي بتفصيل أكبر. وفي إحدى كتاباته، وبعد أن يشير أولاً إلى المجد الماضي للعرب ويعدد «الخالدين» من ذلك العصر، ينتقل إلى شجب تراث الانحطاط العربي فيقول مع أخذ تونس بعين الاعتبار:

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

إذا كان الشرق معناه ما ورثناه من قرون الانحطاط. أي: حماقة الإيمان الأعمى بالسلطة. الأفق الضيق. قصر النظر. الجبن في مواجهة الواقع وإهمال قوانينه. الهروب من المسؤوليات. ووحدة التوجه الفكري. فإن «تونس الجديدة» ليست من الشرق ولا الشرق منها¹

وهناك الكثير من المؤرخين والمحللين الاجتماعيين والمثقفين العرب ممن تشهد كتاباتهم على التقبل الكامل لفكرة الركود العربي؛ إذ حظي هذا المفهوم بالقبول والفهم من قبلهم وأصبح يشار إليه في أوساطهم كحقيقة تاريخية لا جدال فيها. بل إنهم قدموها بشكل نمطي متحيز؛ ونجد ذلك في كتابات إسحاق الحسيني. وهو مفكر فلسطيني وأستاذ للأدب العربي. حيث يعبر عن هذا المفهوم بعبارة «العصر المظلم الطويل المضي». وعندما تأتي هذه العبارة الواقعية من قلم كاتب عربي مسلم. وإن كانت مهذبة الألفاظ. فهذا يعني أن الأمر قد تغير عما كان عليه حين كانت مثل هذه العبارة أمراً لا يمكن تخيله.

3. إلى أين نمضي من هنا؟

ما أن تم تقبل الحقيقة التاريخية المتعلقة بركود العرب الذي توالى عليه القرون. فإن ما ترتب عليه من آثار متوجبة تعرضت للمواجهة وبذلت جهود لمعاكسة تأثيرات عواقبها. وكانت سبل تحقيق ذلك متنوعة بحسب تخيلات مختلف الكتاب. على أن معظمهم اتفق على أن النسخة التقليدية للإسلام بشكلها القديم كطريقة شاملة للحياة تتطلب التعديل وإعادة التفسير والإصلاح. ودعا بعض الكتاب إلى فصل العلم عن الدين والسعي الحثيث لتحقيق التقدم العلمي من جانب. والتفسير المتحرر للإسلام بفقّه يأخذ بعين الاعتبار الحضارة الغربية وأهدافها من جانب آخر. ودعا البعض الآخر إلى الفصل بين الدين

(1) محجوب بن ميلاد: تونس بين الشرق والغرب؛ ص22.

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

والدولة كموقف يؤيده «أغلبية المثقفين المسلمين»¹ وبالطبع. كأفضل مثال نموذجي على تقبل العرب المسلمين لتفكرة غربية حديثة. ويلخص إسحاق الحسيني ذلك بقوله:

إن المشكلة المركزية التي تواجه اليوم المسلمين العرب. وكل المسلمين في الواقع. هي كيفية إيجاد طريقة جديدة للحياة. إسلامية في شخصيتها. تكون على الوسط بين الشرق والغرب. وتوفر الاستقرار الداخلي الذي يمكن المسلمين من مواجهة مشاكلهم بنحو مستقل. إن بإمكان العالم العربي أن يستعير التقنية من الغرب ولكن عليه أن يجد الأجوبة على مشاكله الأعمق الكامنة في داخله.²

ومن أعلى الأصوات الناقدة لحال العرب وأكثرها مناداة بالإصلاح كان صوت عبدالله القصيبي. ففي كتابه (هذه هي الأغلال) يبدأ بملاحظة أن «الجهل الاعتقادي قد ضرب على قومنا عقدا فوق عقد». ويمضي إلى تحليل الأسباب التي أدت إلى التخلف الحالي للعرب بخاصة والمسلمين بعامة: فيرى أن السبب الأساسي هو «المكانة المنخفضة للإسلام في كافة مجالات التقدم الإنساني». وهذا «يمتد إلى الحالة البئيسة للفرد المسلم مقارنة بالفرد المسيحي في أي بلد تعيش فيه هاتان الجماعتان جنبا إلى جنب». ثم يعترف بأن «الجمود الثقافي» لدى العربي المسلم لا يمكن الخلاص منه إلا بقبول نفوذ الأجنبي (الغرب) وتدريبه. كما يلاحظ أيضا أن أكثر الدول العربية انعزالا عن العالم الخارجي. وهي اليمن. تتبوأ أيضا منزلة الدولة العربية الأكثر تخلفا. في حين أن أكثرها تقدما هي أكثرها اتصالا بأوروبا. أما إنسانية العرب فيرى القصيبي أنها من نوع «مدقع. محبط. جاهل. ضعيف». وليست من النوع «المتقدم. الناجح. المتعلم. القوي» السائد في الغرب. ويعيب القصيبي على العرب والمسلمين التزامهم طيلة ألف سنة بالمبدأ القائل بأن الإنسان لم يخلق لعظمة قادمة وإنما لجسم وعقل لا فكاك من ضعفهما. وبهذا يكون «الركود فيه مرضاة لله»: وبالعكس من هذه التعاليم القديمة. يقول القصيبي بأن التاريخ يخبرنا بقدرة (1) ومنهم. بحسب إسحاق الحسيني: أحمد أمين. علي عبدالرازق. خالد محمد خالد. (2) إسحاق الحسيني: الإسلام في الماضي والحاضر. مقالة في مجلة (مشهد العالم العربي). أكتوبر 1956: ص171.

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

الإنسان على تحقيق التقدم. وأن الغرب والشرق كليهما يملكان هذه القدرة. لكن الشرق أهمل إمكاناته الإنسانية الخفية واستمر في سباته. بينما «أدرك الغرب إمكاناته المادية والفكرية». ويرى القصيمي أن العرب والمسلمين لا يمكنهم الخروج من هذا الخمول والتقدم نحو امتلاك قوة سياسية متعاضمة إلا من خلال قلب موقفهم التقليدي الذي ينظر إلى الماضي باعتباره عملية انهيار مستمرة بدأت بعد العهد النبوي المجيد وصولاً إلى الحاضر المؤسف. وفهم أن مسيرة الإنسان عبر هذه الحياة لم تتوقف عن مضيها المتسارع أبداً نحو التقدم.¹

عمر فروخ كاتب عربي آخر شعر بأنه وقع على بيت الداء في مشكلة التخلف العربي: وعنوان كتابه «عباقره العرب في العلوم والفلسفة» يشير إلى نية فروخ بتمجيد عباقره العرب. وهذا الأمر يضيف مزيداً من الأهمية التقليدية إلى ما يود قوله عن «التخلف» العربي. وفي الكتاب ناقش فروخ الإسهامات العظيمة للعرب في مجالات علم الكلام والرياضيات والعلوم الطبيعية وفرعين من الفلسفة: «العقلية والاجتماعية». لكن، ولما يلي أهمية حاسمة في اعتباراتنا الحالية. لم يكن أحد من العلماء والفلاسفة العرب العظماء الذين وردوا في الكتاب قد عاش بعد القرن الرابع عشر: لذلك فإن من يقرأ كتاب فروخ يتولد لديه انطباع بأن عباقره العرب. موضوع الكتاب. انقرضوا بدءاً من سنة 1400 تقريباً.

وفوق ذلك. جاءت خاتمة الكتاب. والتي حملت عنوان «ماض رائع. ولكن...». لينجر فيها فروخ إلى مناقشة تخلف العرب: فبدأ بالتشديد على أن «الأثر الأعظم للعبقريّة العربية» يتمثل في حقيقة أن «العرب لوحدتهم من بين الأمم استمروا على حالهم في جميع المجالات. وفي أي جهة قصدوا». ثم يقارن حالهم بالجنس الآري الذي تفرع إلى الإغريق في اليونان، واللاتين في إيطاليا، والفرنسيين في بلاد الغال، والانكليز في بريطانيا. يتطرق بعدها فروخ إلى قضية التخلف العربي في العصر الحديث. فيقول بأنه بينما «يتفوق حال العرب اليوم بنحو ما على حالهم قبل خمسين أو مئة عام». فلا مفر من الحقيقة التي تقول بأن

(1) عبدالله القصيمي: هذه هي الأغلال: ص 12-70.

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

«المقارنة مع الشعوب الأخرى ينتج عنها بأننا لم نحرز أي تقدم. بل إننا نستمر بالتخلف». ويعلل فروخ سبب التخلف هذا بالتشبث العربي المستمر «بالنحو والخطابة. والفقهاء والتصوف». في حين تقدم الأوروبيون إلى عصر «الغارات الجوية. والصواريخ. والاستعمال الدوائي للبنسلين؛ وهذا مما لا يمكن تبريره أو غفرانه»: إنه، بعبارة أخرى، يعزو تخلف العرب إلى تركيز العرب على دراساتهم التقليدية في علمي اللغة والكلام، في حين يكون التركيز الغربي على التقدم التكنولوجي؛ كما إنه يعزو سبب «تخلفنا الحقيقي» إلى وجود تلك المؤسسات في الدول العربية. والتي...

تحمل اسم مقاعد التعليم. لكن الغرض الحقيقي منها كان إبعاد العرب عن أي تعليم متين مثمر. والاقتران على التزويد بالمواد النظرية المفصلة التي لا فائدة منها وإن استوعبها الجميع... وفي الوقت ذاته كنا محجوبين عن العلوم والفنون الأهم والأفنى التي تدور بها عجلة الحضارة والمجتمع. والتي تُدرّس في الغرب حتى في المدارس الابتدائية.

ويرى فروخ أن المعايير ذاتها التي يستمر العرب «في استخدامها لتقييم الحياة... قد وضعت في أيدينا كي نستمر منشغلين ومنعزلين عن القيمة الحقيقية للحياة المعاصرة». ويقترح فروخ علاجاً لهذه الحالة المزمنة يتكون من جانبين: أولاً، «على العرب أن يسلكوا الطريق الذي سلكه أسلافنا للوصول إلى النقطة التي وصلوا إليها. والسلم الذي ارتقوه في سبيل تأسيس موقعهم في حلبة العبقريّة هو نفسه الذي يجب أن نرتقيه»؛ وثانياً، على العرب أن يتعلموا التكنولوجيا الغربية.¹

4. الركود الحضاري والقومية

تكاد فكرة الركود الحضاري في الفترة (ما بين عظمة أوائل العصر الوسيط والنهضة العربية الحديثة) تشكل أساس معالجة مواضيع القومية العربية لدى الكاتب حازم زكي

(1) عمر فروخ: عباقرة العرب في العلوم والفلسفة: ص 155-158.

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

نسبية. فهو يقول بأن مدة طويلة من قرون عديدة من الركود الحضاري التي تلت الفتح التركي للبلاد العربية. اتصف خلالها العرب باللامبالاة والتبعية المشينة؛ ونشأ مجتمع ساكن تمثلت صفاته الأساسية بالعجز عن التغيير والتمسك بالأعراف وتقليد الآخرين. وتشبعت كافة مناحي الحياة بالركود والإحجام عن المبادرة؛ ومع أنه من غير اليسير تقصي أسباب الفقر الروحي الأساسي الذي كان منبع الانحطاط التالي، فإن سببين اثنين يمكن تمييزهما كأول حلقتين في سلسلة الأحداث التي أدت إلى اضمحلال العالم العربي وتحجره. وهما: فقدان العرب للقوة، وانحدار الدين إلى أنماط شكلية؛ ونتيجة لذلك أصبح النظام الاجتماعي متشبعا باللامبالاة والسكون المجهد وانعدام الاهتمام. واستمر هذا الحال حتى جاءت صدمة الغرب بالإحياء الحديث للعالم الناطق بالعربية.¹

إن الفكرة الأخيرة التي تناولها نسبية كانت محل تطوير من قبل منيف الرزاز. وهو أمين عام سابق لحزب البعث في سوريا. وتعطي معالجة الرزاز للفكرة انطبعا بأن العرب كانوا ليستمروا في ركودهم ما لم تنتشلهم صدمة الغرب. وهو يرى أن القومية العربية ولدت استجابة لتحدي الاستعمار الغربي، وفي البدء كانت ذات شخصية سلبية تحولت في ما بعد إلى إيجابية. وتولت مسؤولية تحويل الشخصية المتخلفة لمجتمعها وخلق أمة عربية جديدة تقدمية؛ فمذ القرن التاسع فصاعدا ساءت أحوال المجتمع المسلم وأصبح خاملا خامدا مغرورا أعيقت فيه روح الإبداع. وكان لهذه الحال أن تستمر إن لم يطرأ عليها محفز جديد يقلق التوازن المستمر. لكن المحفز جاء من الاستعمار الغربي، وأدى الاكتشاف المفاجئ للمعنى الحقيقي لأوروبا والحضارة الغربية إلى اهتزاز العالم العربي الإسلامي الغارق في السبات والرضى عن الذات والذي فقد قوته الدافعة؛ وهذه الظروف أجبرت العرب على إجراء تحليل مؤلم للذات. فبما أنهم غير قادرين على تصديق أن قيم «الكافر» أفضل من قيم «المؤمن»، قاموا باختراع وقبول تفسير يفترض أن المسلمين شوهوا لوقت طويل قيمهم ذاتها وفي مجتمعاتهم هم. وأن القيم السائدة في العالم العربي تختلف بحق عن

(1) حازم زكي نسبية: أفكار القومية العربية، ص 35-42.

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

تعاليم الإسلام قبل قرون؛ وهذا بدوره تطلب منهم إعادة تقييم تراثهم. وإعادة اكتشاف القيم القديمة. وتنقية الإسلام. وهكذا ولدت حركات الإحياء الديني في العالم العربي الإسلامي. فما كان الفشل في السابق إلا لأن السيل الأوروبي لا تمكن مواجهته بغير أفكاره وقيمه ذاتها. وهذا الإدراك أدى إلى فهم جديد لمعنى الحضارة الغربية: فهي، بالإضافة إلى التسليح الحديث والجيوش المتطورة، تمثل نظرات في الحرية والعدالة والصناعة والتعليم والإدارة الحديثة ومفهوما جديدا للقومية تحل فيه روابط الثقافة واللغة المشتركة محل رابطة الدين القديمة. حتى أن نضال العرب من أجل الاستقلال تمت استعارته من الغرب. فهم ناضلوا لتحقيق الاستقلال من أجل نيل القدرة على تأسيس حكومات ومجتمعات مشابهة لمثيلاتها في الغرب. وبعد الحرب العالمية الثانية اكتشف القوميون العرب وميزوا مشكلة التنمية الاجتماعية على أنها جزء من الحركة نفسها. وأصبح المجتمع العربي بعدها جاهزا لأفكار اشتراكية وماركسية بطبيعتها. وبالأخص ما كان منها متوافقا مع أفكار القومية. فانقلبت الجماهير العربية على نخبها الحاكمة. والتي كانت في نظرها رجعية وفسادة وغير كفوءة وتخاف من تحرر الجماهير وترتبط مباشرة بالحكومات الغربية ونظامها الرأسمالي. كما أدت الهزائم المتلاحقة للعرب أمام إسرائيل إلى تقوية قلة إيمان العرب بحكوماتهم وعززت حماسها الثوري. لكن المجموعات العسكرية في الدول العربية قامت بشرعنة وجودها بحجة التهديد العسكري الدايم من قبل الصهيونية. وهذا بدوره أدى إلى تشويه حركة القومية العربية. أما القومية العربية الحقيقية. ممثلة بحزب البعث، فهي برأي الرزاز:

القوة المحركة للعرب في صراعهم لخلق أمة تقدمية موحدة تستطيع الوقوف على قدميها بين الأمم. لقد ولدت هذه الأمة كرد فعل على تحديات الاستعمار الغربي. ولكنها امتدت خارج حدود رد الفعل وأصبحت حركة أصيلة لها جدارتها الخاصة بها.

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

وإذا أردنا تلخيص آراء الرزاز فيمكننا أن نقول بأنه يفترض أنه لولا صدمة الغرب لبقى العرب على حالة الانحطاط في العصور الوسطى بما فيها من ركود واكتفاء مغتر. ولكن الاتصال بالغرب أمدهم بالقوة المحركة لنقلهم إلى نهضة اجتماعية وقومية جديدة.¹

ثمة كاتب عربي آخر تنبغي الإشارة إليه، ولكن باختصار: وهو حسن إبراهيم حسن الذي شغل منصب أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة القاهرة ورئيس جامعة أسيوط. والذي تناول مسألة ركود المسلمين في خضم دراسته العميقة للإسلام من الجوانب الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية؛ وكغيره من الباحثين العرب الذين يناقشون هذه المسألة. يأخذ هذا الكاتب قضية الركود الحضاري باعتبارها من المسلمات، وبالتالي لا يزعم نفسه بمناقشتها، وعوضاً عن ذلك، تجده يورد بضع كلمات في شرحها:

إن تخلف الأمم الإسلامية لا يمكن أن يعزى عموماً إلى العقيدة ذاتها، وإنما إلى عوامل سياسية عالمية كالاستعمار الغربي والجهود الحثيثة لبعثاته التبشيرية.²

5. الركود الحضاري ومراحله الخمس

إذا أردنا أن نلخص العناصر المشتركة في الآراء العربية المتعلقة بالركود الحضاري يمكننا أن نميز خمسة مراحل واضحة على الأقل. فقبل الاتصال بالغرب كان العرب، على نحو عام، غير مدركين بعد لانحطاطهم الثقافي الذي بدأ في القرن الخامس عشر. وبغياب كتب التاريخ المكتوبة بالعربية بعد نهاية العصور الوسطى، والدخول في عصر لا يعبأ فيه بالتاريخ، ركز الفخر العربي اهتمامه بدلاً من ذلك على العصر الذهبي للعرب، بينما بقيت عصور الركود التالية مجهولة على نطاق واسع. أو لا يعبأ بها. وبعد «فتح» بلاد العرب من قبل الغرب في غزو نابليون لمصر، وما تلا ذلك من اهتمام علماء الغرب بالتاريخ العربي، أدت هذه المرحلة إلى نشوء مرحلة ثانية سادت فيها قضيتان متداخلتان:

(1) راجع كتابي الرزاز: القومية العربية: وتطور معنى القومية.

(2) حسن إبراهيم حسن: الإسلام... دراسة دينية سياسية اجتماعية اقتصادية: ص532.

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

كانت الأولى منهما الازدياد الذي لا بد منه في مستوى الوعي بتفوق الغرب على المستوى التكنولوجي. أما الأخرى فكانت المعلومات الغربية المتعلقة بالتاريخ العربي. بما في ذلك الركود العربي المستمر منذ نهاية العصور الوسطى. وهذه القضية إن كانت مدبرة في الأصل لهز الاعتقاد المستقر الذي دام قرونا بتفوق «دار الإسلام» على «دار الحرب» الأقل شأنًا التي يقطنها الكفار. فإن ذلك أدى إلى قدح شرارة كراهية كبيرة.

ثم تلت ذلك مرحلة ثالثة بعد أن تم استيعاب المفهوم الجديد للركود العربي وأصبح جزءا من المدارك العامة. فبعد ركود طويل، تولد إحساس بأن ساعة النهضة قد أزفت من أجل القيام بجهد جبار لتحقيق الرقي والتقدم والتنمية والإحياء والتحديث. وكلها أهداف جاءت أفكارها مصاغة بالمصطلحات البسيطة التي حملها التغريب. وفي هذه المرحلة تم توجيه اللوم كثيرا. في ما يخص الركود العربي، إلى التأثيرات الشاقة والمنهكة لأربعة قرون من الهيمنة التركية. والتي نظر إليها كفترة من الاستغلال والقهر المستمر.

وما أن انتهت هذه المرحلة حتى تلتها مرحلة رابعة اتصفت بالتخلي عن تلك الأفكار وانقلاب مسار الفهم؛ فلم يعد الغرب نموذجا يحتذى به دون مساءلة. وأصبحت الهيمنة الغربية على الدول العربية ينظر إليها بأنها ليست غير نسخة محدثة من الاستغلال الامبريالي التركي؛ وإن كانت الدول العربية لا تزال تعاني من الركود والتخلف الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والتكنولوجي فليس هنالك من يلقي اللوم عليه. وفق أفكار هذه المرحلة. «غير الغرب المنخرط في مؤامرات خبيثة للحيلولة دون تمكن العرب من اللحاق بالركب الحضاري». وقد وصفت هذه المرحلة بأنها تعبير عن كراهية عميقة وشديدة للغرب وإحساس بالاشمئزاز منه.

أما المرحلة الخامسة فحدث فيها تعديل ملحوظ للمرحلة الرابعة. وذلك بعد أن لم يعد للقوى الغربية أي هيمنة استعمارية على أي دولة عربية منذ حصول الجزائر على استقلالها عام 1963. وبحلول عام 1971 كانت حتى أصغر الدويلات الصغيرة في أطراف

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

شبه الجزيرة العربية قد أخرجت كافة العوائق الأجنبية منها. صحيح أن الخطاب الموجه ضد الامبريالية الغربية لم يتوقف لكنه أصبح يبدو فارغا من المعنى شيئا فشيئا حتى بالنسبة للمستمع العربي. وتبقى قضية أخيرة يلقي عليها اللوم باعتبارها سببا لانعدام التقدم في العالم العربي. أي: الركود النسبي المستمر. إن الركود الداخلي، أو كما يفضل قادة العرب الجدد أن يدعوه: انعدام التقدم السريع بما يكفي على الجبهات الداخلية. تلقى تبعته على إسرائيل. فما دامت إسرائيل موجودة يصر العرب على أن من الواجب عليهم بذل كافة الجهود لتحرير آخر شبر من أرض يعتبرونها ملكا شرعيا لهم؛ وإلى أن يتم تحقيق هذا الهدف فإن كافة القضايا الأخرى تتخذ موقعا ثانويا. ومن جهة أخرى، كانت هزيمة العرب أمام إسرائيل، وبالأخص في حرب حزيران 1967، أقوى حافز للإصلاح شهده العالم العربي الحديث.

6. العدو مثلاً أعلى

إن مواجهة العرب لإسرائيل وهزيمتهم أمامها ثلاث مرات خلال عشرين عاما (1948، 1956، 1967) أجبرتهم على تبني نظرة جديدة أكثر صراحة وتصلبا وتدقيقا لمشكلة الركود. وبرزت حاجة للإجابة عن السؤال المؤلم: كيف استطاعت دولة صغيرة مثل إسرائيل أن تحطم جيوش عدة دول عربية تتفوق عليها بالعدد والعدة. لا لمرة واحدة وإنما لثلاث مرات متتالية؟ وأبرز البحث عن الإجابة سيلا مهما من الكتب والنشرات والمقالات التي بدأت فور نهاية حرب 1948 ولم تتوقف منذ ذلك الحين. ومعظم هذه الكتابات تناقش ضعف العرب، وتخلفهم وأسبابه، وتدخل في تحليل مفصل للجوانب التي يلاحظ تخلف العرب فيها: عجز العرب عن تحقيق الوحدة حتى عندما يواجههم عدو شديد المراس، عدم كفاءتهم في محاولة حل مشكلاتهم الاجتماعية، ركودهم الثقافي، وما أشبه. وثمة إجماع عام على أن جوانب عديدة من حياة العرب قد وصلت إلى مرحلة حرجة وأن جزءا كبيرا منها ينبغي أن يتعرض إلى تغيير جذري. وبالرغم من ذلك، توجد اختلافات في طرق المعالجة ومستوى التشدد فيها، وذلك وفق التوجه الأيديولوجي للمنتقدين. وفي تحليل دقيق للكتابات العربية

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

التي تناولت أسباب ودروس هزيمة 1967، يجد حرقبي في كتابه (دروس العرب من هزيمتهم) أنها جميعاً تندرج في أصناف خمسة:

1. الاتجاه الإصلاحية

وهو يشدد على أن الهزيمة جاءت نتيجة للضعف، وعوامل أساسية في الفرد والمجتمع، والشروط التي يتصف بها النظام العربي في الحكم، والعلاقات العربية-العربية، وبالتالي ينبغي القيام بتغييرات أساسية: إعادة تشكيل النظام الاجتماعي والسياسي، إصلاح النظام التعليمي، وخلق إنسان عربي جديد. كما ينبغي أن يعم التحديث حياة العربي ووعيه بشكل عام، وأن يتم تطوير التكنولوجيا، وأن تصبح الأنظمة متحررة.¹

2. الاتجاه الثوري

وهو يميز الضعف السابق ذاته ولكنه يعزوه إلى الأنظمة العربية ويرى أن الحل يكمن ثورة شاملة وانفصال جذري عن القيم التقليدية، وبالتالي لن تكون هنالك من حاجة لانتظار تحقق كافة التغييرات، وإنما يجب أن تشن عوضاً عن ذلك «حرب شعبية ثورية» على إسرائيل، وهذه الحرب سوف تتطور إلى ثورة شاملة.²

3. الاتجاه الإسلامي

ويمثله من يتحسسون للمعائب الأخلاقية المنتشرة في الدول العربية، ويعزونها إلى ضعف التمسك بالإسلام؛ وهم يشعرون بأن المجتمع العربي قد انحط لأنه ابتعد عن الإسلام؛ ويعتقدون أن علاج مشاكل العرب يكمن في الإسلام الذي باستطاعته دون غيره أن يمددهم بالقوة اللازمة لاستمرار النضال ضد إسرائيل ويضمن لهم الانتصار النهائي.³

(1) راجع، قسطنطين زريق: معنى النكبة مجدداً.

(2) راجع، صادق جلال العظم: النقد الذاتي بعد الهزيمة.

(3) راجع، صلاح الدين المنجد: أعمدة النكبة.

4. الاتجاه المؤسساتي

وهو يسود في مصر بالأخص. ومع اعترافه بضعف العرب على مستوى الداخل، فإنه يقلص مسؤوليتهم في الهزيمة. ويعزوها إلى ظروف طارئة مثل بعض الأخطاء التي يمكن تصحيحها. وبالتالي يجعل هذا المنهج في التفكير انعدام كفاءة قيادة الجيش مسؤولة عن الهزيمة. ويرى العلاج في إعادة بناء الجيش. ويتمسك أتباع هذا الاتجاه بأن على الشعب أن يثق بقيادته السياسية؛ فالحل لا يكمن. كما تطالب الاتجاهات السابقة، في تغيير الأنظمة. وإنما، على العكس، في تقويتها.

5. فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية

وموقفها يتمثل في أن وجود إسرائيل هو السبب في كافة التعثرات العربية؛ فلا فائدة ترتجى من أية محاولة لتحسين الظروف الداخلية في الدول العربية ما دامت إسرائيل موجودة؛ وبالتالي يجب أن تبذل الجهود كافة في محاربة إسرائيل. و فقط عندما تتم تصفيتها نهائياً يستطيع العرب أن يتفرغوا لإصلاح البيت الداخلي.

ويمكن الاقتصار على بضعة أمثلة للاستدلال على تلك الاتجاهات ومدى النقد الذاتي الذي يميز العديد من الكتابات العربية حول الهزيمة أمام إسرائيل. وأسبابها. والدروس التاريخية المستمدة منها. ومن أول وأهم هذه الأمثلة كراس ظهر بشكل مبكر في أغسطس 1948 فور انتهاء الحرب العربية-الإسرائيلية ذلك العام. وحملت عنوان «معنى النكبة» بقلم المفكر والأكاديمي السوري الدكتور قسطنطين زريق. ولهذا العمل أهمية عظيمة تنبع من أن الملاحظات الواردة فيه تم تكرارها مرارا وتكرارا في العديد من الكتب والمناشير والمقالات التي ظهرت في العديد من أرجاء العالم العربي.

يؤكد زريق، وهو من أكثر المفكرين العرب المعاصرين تأثيرا، على أن الحرب المديدة لاجتثاث الصهيونية لن تنتهي بانتصار العرب ما داموا على وضعهم الحالي، وأن الطريق

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

إلى هذا الانتصار يتمثل بالتحول الكامل لأنماط تفكيرهم وأفعالهم وحياتهم. وهو يرى أن انتصار الصهاينة كان لأن «جذور الصهيونية ممتدة في الحياة الغربية الحديثة بينما لا يزال معظمنا بعيدا عن هذه الحياة ومعاديا لها. إنهم يعيشون في الحاضر ومن أجل المستقبل، بينما لا نزال نحلم بأحلام الماضي ونخضع أنفسنا بمجده الغابر». وفي سبيل تحقيق هدفهم، يعتقد زريق أن العرب ينبغي أن يتحدوا ويصبحوا تقدميين ويؤسسوا وجودا عربيا متينا، ثم يستمر بنقده للعرب لعدم تأثرهم بفكرة أرض الأجداد وتفرقهم في العمل من أجل أهدافهم، بينما يتغلغل حلم بناء أرض الأجداد إلى نخاع عظام الصهاينة، ويتحدون في سبيل تحقيق ذلك، وتتجذر أقدامهم في الحياة الغربية الحديثة، وتجدهم مستعدين دائما للانديفاع السريع والتقدم؛ وما لم يكتسب العرب هذه الصفات، بما في ذلك استبدال عقلية تقدمية نشيطة بعقليتهم البدائية الراكدة الساكنة، فلن يكونوا قادرين على هزيمة الصهاينة؛ وعلى العرب أن يسعوا جاهدين لتوحيد كافة الدول العربية وتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والتحول إلى التقدمية باعتبار أن التقدمية كانت سببا في هزيمة الصهاينة للعرب.

ويعدد زريق من عناصر التقدمية:

1. التكنولوجيا.
2. الفصل ما بين الدين والدولة.
3. انتقال العقل العربي إلى حالة منظمة من خلال التدريب بالعلوم التجريبية النافعة والابتعاد ما أمكن عن المثاليات الخيالية المخدرة التي لا ضرورة لها.
4. اكتساب أسس القيم العقلية والروحية.

ويبرر زريق اقتراحه بالتحول الجذري إلى التقدمية بالاحتجاج أنه «تحت وقع ضربات الصهيونية انتهى وضعنا الحالي إلى إفلاس مادي وروحي فظيع. في هذا الصراع لم يكن

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

لتقاليدنا أي فائدة». وأن العدو. بفضل امتلاكه الحضارة الحديثة «تعدانا في قوة إيمانه. ووحدته الولاء، والقدرة على التمسك بالشعب والأرض والوطن. كما تعدانا في أسلحة الحرب والتقنيات المادية». ومن هنا يرى زريق أن العرب أيضا ينبغي أن لا يخشوا شيئا من هذه التقديمية الوطنية.¹

إن الاحتجاج بأن هزيمة إسرائيل تتطلب من العرب اكتساب الصفات نفسها التي تفوق بها اليهود على العرب. نجدها مكررة بمزيد من التأكيد بعد 19 عاما في كتاب آخر لزريق صدر في أغسطس 1967 حول الموضوع ذاته بعد عدة أسابيع حرب حزيران في ذلك العام. وحمل عنوان «معنى النكبة مجددا». وفي الكتاب الجديد يعزو زريق مجددا هزيمة العرب إلى ضعفهم الثقافي والتعليمي، ويقارن بين العرب واليهود. ويؤيد اتخاذ الآخرين مثلا يتبعه الأولون، فيقول:

الحقيقة التي يجب أن ندركها ونعترف بها هي حقيقة حضارية: إن كلام المجتمع العربي والمجتمع الإسرائيلي الذي نواجهه ينتميان إلى حضارتين مختلفتين. أو نمطين مختلفين من أنماط الحضارة. وهذا سبب أساسي لضعفنا رغم أعدادنا الغفيرة. وقوة الإسرائيليين رغم عددهم القليل. وعندما نصل إلى مستواهم ستحل المشكلة من تلقاء نفسها...

ويشرح زريق أن حديثه عن «الحضارة» لا يعني القيم الحضارية والأخلاقية. وإنما الحضارة الحديثة التي تتفوق بإنجازاتها العلمية على المستويين النظري والعملي، والعقلانية التي تنمو سريعا أو حتى باندفاعات مفاجئة. ثم ينتقل زريق في ما بعد إلى دور العلم في الحياة العصرية فيقول:

يشكل العلم أيضا أرضية للفاعلية السياسية. إذ ينبغي علينا أن ندعم الأمم الأخرى أو نعارضها بناء على المحاكمة العلمية وحدها. لا على أساس المشاعر

(1) راجع. قسطنطين زريق: معنى النكبة.

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

والعواطف: علينا أن نشكل تنظيمنا الداخلي وعلاقتنا الخارجية على ضوء العلم... ولا يعبر العلم عن نفسه بنتائج مرئية فحسب... فبعيدا عن كافة المظاهر الخارجية توجد حاجة لعقلية مدربة ومنظمة. ومثل هذه العقلية لا تكتفي بالخيال. بل إنها تنتفض ضده. إنها تعتقد بالواقعية والتجربة. وتتقدم نحو المعرفة في طريق شاق يتطلب الصبر والجهد الجهد: وهي مسلحة بنفس طويل. والجاهزية للتضحية بالمنافع السريعة مقابل التخطيط والتنظيم والمنهجية التي تعتنقها. والعلم. أساسا. طريقة للتفكير وطريقة للحياة. فيكون السؤال الأساسي: كيف لنا أن ننقل المجتمع العربي بشكل كامل وعاجل من مجتمع عاطفي يعيش في الخيالات ويتغذى على الأساطير إلى مجتمع عملي وفعال وعقلاني وعلمي؟ كيف لنا أن نحقق فيه الثورة التي ستجلب لنا الأمن والقدرة والسمعة في العالم الحديث؟...

ويحاول زريق في صفحات لاحقة أن يجيب على السؤال الذي طرحه مسبقا. وذلك بأن الخطوة الأولى على طريق تحقيق مجتمع عربي علمي منتج والمقدمات الأساسية لذلك تكمن في الإيمان «بنداء العلم والإنتاجية» والسعي المتحمس للقيادة السياسية والمفكرين والقادة المحليين لنشر هذا النداء في جميع قطاعات المجتمع العربي و«غرسه في أدمغتهم وأرواحهم إلى أن يصبح جزءا من مشاعرهم وأفكارهم ومصدرا لإرادتهم». وعلى الدولة أن تجعل هذا الهدف هاجسها الأساسي. ويصف زريق التغييرات التي يجب القيام بها لهذا الغرض في الماكينة الحكومية نفسها فيرى وجوب رفع سوية الإنتاج والتنمية واستبدال الارتجالية والجهود المتفرقة قصيرة المدى بالتخطيط الدقيق الذي يتطلب امتلاك «العقلية المخططة». وأن على العالم العربي أن ينخرط في حرب ضد تخلفه. وأن يؤسس مجتمعا قوامه العلم ولهذا الغرض ينبغي على العرب أن يتعلموا مواجهة الحقيقة ويبدؤوا بالبحث العلمي. كما إن على عائق الشعب واجبات مهمة عليه أن ينجزها: عليه أن يقوم بدور فعال في شؤون الأمة وأن يفهم بأن الصراعات والحروب ليست

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

مسؤولية الحكومة أو مجموعات أو أحزاب معينة فحسب، وإنما هو معني بها أيضا؛ ولهذا ينبغي أن يتمتع الشعب بالحرية السياسية والايديولوجية. أخيرا، يتطلب الصراع من الشعب أن ينمي صفات ثلاث: العقلانية، حب العمل والمقدرة عليه، الانضباط والنظام، والرضى بالقليل.¹

بعد أربعة أشهر من ظهور الكتاب الثاني لزريق، نشر كتاب أكبر منه وحول الموضوع ذاته للدكتور صلاح الدين المنجد بعنوان (أعمدة النكبة: بحث علمي في أسباب هزيمة 5 حزيران)؛ والمنجد كاتب سوري درس القانون في جامعة السوربون وترأس مركز المنشورات الدورية في الجامعة العربية. يفتح المنجد الفصل الرابع من الكتاب والمعنون (تخلفنا العلمي) باقتباس من مقال للكاتب المصري محمد حسنين هيكل منشور في صحيفة الأهرام المصرية في 20 أكتوبر 1967، وينتهي الاقتباس بقوله: «إننا نواجه عدوا ماهرا عصريا، وليس هنالك من حل آخر أمام الجانب العربي في المواجهة العامة سوى أن يكون مثله في المهارة والعصرنة». ثم يبدأ المنجد بتحليل جارح لمواطن الضعف عند العرب بصراحة شجاعة أكثر إبلا ما لأنه يقارن بين التفوق الإسرائيلي والتخلف العربي، وفي الكثير من النواحي، يبدو تقريره تفصيلا لأطروحة زريق في ما عدا أن المنجد يقف ضد تقدمية زريق ويبدو معاديا للاشتراكية بشدة؛ فيقول:

إن إسرائيل، بسبب جهودها في مضمار العلم، تتقدم بخطوات كبيرة باتجاه الاكتفاء الذاتي وبدأت بتصدير منتجاتها، حتى العسكرية منها، إلى أفريقيا وآسيا؛ بينما نحن، بسبب الأنظمة الاشتراكية، نخطو إلى الخلف، ولا نزال معتمدين على الغرب، ولم نتوقف عن استجداء حتى الأسلحة الخفيفة منه.

بعد ذلك بنحو عام، ازدادت الكتابات التي تتناول كارثة 1967 تطورت إلى حد شعر فيه محامٍ وقائد سياسي بالحاجة إلى تصنيفها في عدة أنماط وتحليلها، قبل أن يقدم

(1) قسطنطين زريق: معنى النكبة مجددا.

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

تفسيراته الخاصة. هذا الشخص هو الدكتور عبدالرحمان البزاز. أحد رؤساء الحكومة في العراق. وقد قسم تلك الكتابات إلى عشرة توجهات فكرية في ما يخص أسباب الهزيمة:

1. انهزم العرب لأنهم لم يظهروا جبهتهم الداخلية. ولم يستقروا على مبدأ الاشتراكية العلمية.
2. لأنهم لم يعتمدوا بشكل كامل على الدول الاشتراكية.
3. لأنهم لا يزالون رهينة عقلية العصور الوسطى.
4. لأن أجهزة إعلامهم لم تتمكن من رفع الروح المعنوية لجيوشهم.
5. لأنهم لم يكونوا متشبعين فعلا بالوعي القومي في مواجهة العدو.
6. لأن أجهزة إعلامهم لم تكن قادرة على حشد الرأي العام العالمي إلى جانبهم.
7. لأن دولهم بقيت منفصلة غير متحدة.
8. لأنهم لم يستجيبوا لنداء الأحزاب الطليعية.
9. لأن قوتهم استنفدتها الصراعات العربية الداخلية.
10. لأن الأنظمة العربية والسياسيين لم يكونوا على المستوى المطلوب من المسؤولية.

وبالرغم من أن هذه التوجهات لا يعزو أي منها الهزيمة إلى الركود والتخلف عند العرب، فإن هذا التفسير يدخل في العديد منها، سواء أكان ذلك بالتصريح (1، 3) أو التضمين (4، 5، 7، 8، 9). إن التوجهات العشرة جميعها تبحث عن أسباب الهزيمة في أخطاء العرب بشكل

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

عام أو تنحو باللائمة فيها على الأنظمة أو السياسيين. ولم يتطرق أي منها بأي شكل من الأشكال إلى تدريب وعقلية الجنود العرب.

وبعد مناقشة كل من هذه التوجهات في مقطع مختصر. والتنبيه إلى أن كل منها له توجه يعاكسه. ينتقل البزاز إلى إبداء وجهة نظره حول مواطن الضعف الكبرى لدى العرب. والتي سلط الضوء عليها بفعل الهزيمة. فيقول:

1. أي بلد عربي لا يمكنه أبدا أن يكون لوحده قويا بما فيه الكفاية لهزيمة إسرائيل؛ وبالتالي ينبغي على العرب أن يتحدوا. [راجع التوجه السابع]
2. على الرغم من وجود اتفاقيات رسمية بين الدول العربية. فإنها دائما ما تتخذ إجراءات متعارضة. أو حتى متضاربة. [راجع التوجه التاسع]
3. على العرب أن يؤسسوا جهازا إعلاميا دعائيا موحدا. [راجع التوجهين الرابع والسادس]
4. يوجد نقص في التخطيط والدراسات التأهيلية في أفعالنا؛ فمعظم أفعالنا تنسم بالعاطفية ورد الفعل المباشر ونقص الحسابات الكاملة للعواقب النهائية.
5. تصرفاتنا كدول. على العموم وفي معظم الحالات. لا تختلف عن تصرفاتنا كأفراد يتكون منهم مجتمعنا؛ فنحن نبالغ في الحب والكره كليهما. وتصل كراهيتنا إلى حد ندمر فيه كافة الجسور المؤدية إلى الصداقة أو السلام.
6. إننا نميل إلى تحميل الآخرين مسؤولية أخطائنا. وهذه وصمة نفسية موجودة فينا حيث تنمو منذ الطفولة. [راجع التوجه العاشر]

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

7. علينا أن نلاحظ أن إسرائيل ذاتها تمثل تهديدا لنا، فهي ليست قاعدة للقوى الامبريالية فحسب.

8. علينا أن نحشد قواتنا بطريقة مشابهة لما يحدث في إسرائيل. علينا أن نكون واثقين من أن قادة جيشنا يتساوون في قيمتهم مع قادة أعدائنا الذين يتصفون بالذكاء والتعليم وإدراك معنى الحروب الحديثة.

... إن المشكلة الأساسية هي في كيفية رفع مستوى الفرد العربي... إلى حد يساوي فيه. على الأقل. مستوى العدو...¹

إن ما أوردناه من اقتباسات يكفي لتبيان أن هنالك رغبة شديدة حقا بين المفكرين العرب لإحداث تغييرات عظيمة الأثر في النسيج التقليدي لمجتمعهم. ولإعادة تشكيل الفرد العربي في قالب جديد. أضف إلى ذلك أنهم يبدوون اعتبارهم لعدوهم، إسرائيل، بمكانة المثال الذي ينبغي على العرب تقليده، كما يرى ذلك العديد من بلغاء المتكلمين. ويكون ذلك في الأساس بغرض التمكن من هزيمة إسرائيل، كما يكون أيضا للتمكن من تحقيق التقدم وامتلاك سمعة مشرفة في العالم المعاصر. وقد أصبح الميل إلى اعتبار إسرائيل كمثال ظاهرة شديدة الانتشار في مصر إلى حد أصبحت فيه محط انتقاد معلن. وفي 14 يوليو 1972 نشر في صحيفة الأهرام شبه الرسمية مقال لرئيس التحرير محمد حسنين هيكل، وهو مستشار نافذ لدى الرئيس المصري. أعلن فيه رأيه المعارض لعدد كبير من العرب الذين زاروا إسرائيل أو كان في نيتهم أن يزوروها. وقال:

إسرائيل تريد تجريد العرب من سلاحهم الرئيسي. وهو عدم قبولهم بها... هنالك الآن مئة وخمسون ألف مواطن عربي يعبرون جسر نهر الأردن كل شهر مغادرين إلى إسرائيل أو عائدين إليها. مئة وخمسون ألف مواطن عربي كل شهر في إسرائيل! هل بإمكاننا استيعاب المعنى الكامل لهذا، إذا تفكرنا في هذا الرقم ونحن يجب أن

(1) عبدالرحمان البزاز: كيف يريح العرب الحرب.

العقل العربي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

نتفكر فيه لوقت طويل. المعنى السياسي للجسور المفتوحة التي تساعد حالة. أو جريمة. اللاسلام واللاحرب القائمة حاليا؟ إن معنى هذه السياسة هو بالضبط أنها طريقة لإخماد رفض العرب لإسرائيل. وهي أكثر قوة من الطائرات والدبابات والبنادق التي تستعملها إسرائيل... وهي أخطر سلاح تمتلكه. ومع ذلك أصبحت وكأنها شيء عادي... كإيقاع الحياة اليومية. أليست هذه كارثة؟

في كلماته هذه يقول هيكل بشكل غير مباشر بأنه يعتقد أن ما يراه الزائر العربي في إسرائيل لا يتمكن من مقاومة إغرائه. لكن هذه الرأي وجد لسانا ينطق به عند الكاتب الفلسطيني محمود درويش في صحيفة الأهرام بعد أيام قلائل من مقالة هيكل. حيث نفّس درويش عن غضبه ضد كثير من العرب المتحمسين لقراءة ترجمات عربية لكتب مؤلفين إسرائيليين جاعلين منها في صدارة المبيعات. بالإضافة إلى استماعهم للإذاعات الإسرائيلية. فبالنتيجة. تحول موقف العرب من ازدراء إسرائيل إلى تقدير مبالغ فيه يقترب من الإعجاب: وأصبح الرأي العام العربي يعتبر المجتمع الإسرائيلي نمطا حقيقيا وصحيا للحياة حيث تتوفر فيه حرية أوسع بكثير. وحذر درويش بأن ضرورة معرفة العربي لعدوه يجب أن لا تعني استعمال دعايته على العرب.

يبدو واضحا أن الإدراك بأن العالم العربي قد أصبح منذ العصور الوسطى متخلفا عن الغرب في العديد من مجالات الحضارة. وهو إدراك صعق العرب لأول مرة عندما انهزموا بسهولة أمام نابليون. هذا الإدراك سلطت عليه الأضواء بشدة وعلى نحو مؤلم جدا عند هزيمتهم أمام إسرائيل. وخلال مئة خمسين عاما فصلت بين هاتين الهزيمتين لم تندلع حرب كبرى بين العرب والدول الغربية. وإنما مجرد اشتباكات صغيرة كاستيلاء المهدي على الخرطوم عام 1885 وهزيمته في ما بعد عام 1898. وهذه كانت لها أهمية محلية فقط ولم تحدث انطبعا في العالم العربي؛ وكذلك كان استقلال الدول الثلاث التي حكمتها فرنسا في شمال أفريقيا. المغرب وتونس والجزائر. فلم يكن ذلك بمواجهة واسعة النطاق بين قوى عظمى مسلحة لدولة غربية وأخرى شرقية.